مقدمه

اعلم رحمك الله - أن التوحيد هو : إفراد الله بالعبادة .
وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلى عباده فأولهم نوح عليه السلام ، وأرسله إلى قومه لما غلو في الصالحين : وداً وسواعاً ، ويغوث ويعوق ونسراً .
وآخر الرسل محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين ، أرسله إلى قوم يتعبدون ويحجون ويتصدقون ، ويذكرون الله كثيراً ، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله .
يقولون : نريد منهم التقرب إلى الله ، ونريد شفاعتهم عنده ، مثل الملائكة ، وعيسى بن مريم ، وأناس غيرهم من الصالحين ، فبعث الله محمداً (صلى الله عليه وسلم) يجدد لهم دين أبيهم إبراهيم ، ويخبرهم أن هذا التقرب والإعتقاد محض حق لله ، لايصلح منه شيء لغير الله ، لا لملك مقرب ، ولا لنبي مرسل ، فضلاً عن غيرهما .

وإلا فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له ، وأنه لايرزق إلا هو ولايحي إلا هو ولايميت إلا هو ، ولايدبر إلا هو ، وأن جميع السموات ومن فيهن والأرض ومافيها ، كلهم عبيده ، وتحت تصرفه وقهره .

وإذا أردت الدليل على أن هؤلاء الذين قاتلهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يشهدون بهذا ، فاقرأ قوله تعالى : قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر ؟ ، فسيقولون الله فقل أفلا تتقون .

وقوله : قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنى تسحرون وغير ذلك من الآيات .

فإذا تحققت أنهم مقرون بهذا ، ولم يدخلهم في التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . وعرفت : أن التوحيد الذي مجدوه ، هو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا الإعتقاد .

كما كانو يدعون الله سبحانه ليلاً ونهاراً ، ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله ليشفعوا له أو يدعوا رجلاً صالحاً مثل اللات ، أو نبياً مثل : عيسى ، وعرفت : أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قاتلهم على هذا الشرك ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده ، كما قال الله تعالى : فلا تدعو مع الله أحدا.

وقال تعالى : له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء .
وتحققت أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قاتلهم ليكون الدعاء كله لله ، والنذر كله لله ، والذبح كله لله ، والإستغاثه كلها بالله ، وجميع أنواع العبادات كلها لله .
وعرفت : أن اقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام وأن قصدهم الملائكة ، والأنبياء والأولياء ، يريدون شفاعتهم ، والتقرب إلى الله بذلك ، هو الذي أحل دماءهم وأموالهم عرفت حينئذ التوحيد الذي دعت إليه الرسل ، وأبى عن الإقرار به المشركون .
وهذا التوحيد ، هو معنى قولك لا إله إلا الله ، فإن الإله عندهم هو الذي يقصد لأجل هذه الأمور ، سواء كان ملكاً ، أو نبياً ، أو ولياً ، أو شجرة، أو قبراً ، أو جنياً لم يريدوا أن الإله هو الخالق ، الرازق المدبر ، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده ، كما قدمت لك .
وإنما يعنون بالإله ، مايعني المشركون في زماننا بلفظ السيد ، فأتاهم النبي (صلى الله عليه وسلم) يدعوهم إلى كلمة التوحيد ، وهي : لا إله إلا الله .
والمراد من هذه الكلمة معناها ، لامجرد لفظها .

والكفار الجهال يعلمون : أن مراد النبي (صلى الله عليه وسلم) بهذه الكلمة ، هو : إفراد الله تعالى بالتعلق ، والكفر بما يعبد من دون الله ، والبراءة منه ، فإنه لما قال لهم قولوا : لاإله إلا الله ، قالوا : أجعل الآلهة إلهاً واحداً ، إن هذا لشيء عجاب .

فإذا عرفت : أن جهال الكفر يعرفون ذلك ، فالعجب ممن يدعي الإسلام ، وهو لايعرف من تفسير هذه الكلمة ماعرفه جهال الكفار ، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها ، من غير إعتقاد القلب لشيء من المعاني .

والحاذق منهم يظن أن معناها : لايخلق ، ولايرزق ، إلا الله ولايدبر الأمر إلا الله.

فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعنى لاإله إلا الله .

إذا عرفت ماذكرت لك معرفة قلب ، وعرفت الشرك بالله الذي قال الله فيه : إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . وعرفت دين الله الذي أرسل به الرسل ، من أولهم إلى آخرهم ، الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه ، وعرفت ما أصبح غالب الناس فيه من الجهل بهذا ، أفادك فائدتين :

الأولى : الفرح بفضل الله ورحمته ، كما قال الله تعالى : قل بفضل الله وبرحمته ، فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون .

الثانيه : الخوف العظيم .

فإنك إذا عرفت : أن الإنسان يكفر بكلمة واحدة يخرجها من لسانه ، وقد يقولها وهو جاهل ، فلا يعذر بالجهل ، وقد يقولها وهو يظن أنها تقربه إلى الله تعالى ، كما ظن المشركون خصوصاً إن ألهمك الله ما قص عن موسى - مع صلاحهم وعلمهم أنهم أتوه قائلين : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، فحينئذ يعظم خوفك وحرصك على مايخلصك من هذا وأمثاله .

وأعلم أن الله سبحانه - من حكمته - لم يبعث نبياً بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء كما قال تعالى :
وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا .
وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة ، وكتب الحج كما قال الله تعالى :
فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم .
إذا عرفت ذلك ، وعرفت أن الطريق إلى الله ، لابد له من أعداء قاعدين عليه ، أهل فصاحة وعلم وحجج فالواجب عليك : أن تتعلم من دين الله ما يصير سرحاً لك تقاتل به هؤلاء الشياطين ، الذين قال إمامهم ومقدمهم لربك عز وجل لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين .
ولكن إذا أقبلت على الله ، وأصغيت إلى حجته وبيناته ، فلاتخف ولاتحزن، إن كيد الشيطان كان ضعيفاً.

والعامي من الموحدين ، يغلب الألف من علماء هؤلاء المشركين ، كما قال تعالى : وإن جندنا لهم الغالبون .
فجند الله هم الغالبون ، بالحجة واللسان ، كما أنهم الغالبون بالسيف والسنان ، وإنما الخوف الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح .
وقد من الله علينا بكتابه الذي جعله تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة ، وبشرى للمسلمين فلا يأتي صاحب باطل بحجة ، إلا وفي القرآن ما ينقضها ، ويبين بطلانها كما قال تعالى : ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً .
قال بعض المفسرين : هذه الآية عامة في كل حجة يأتي بها أهل الباطل إلى يوم القيامة .

وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جواباً لكلام احتج به المشركون في زماننا علينا ، فنقول : جواب أهل الباطل من طريقين : مجمل ، ومفصل .

أما المجمل : فهو الأمر العظيم ، والفائدة الكبيرة لمن عقلها وذلك قوله تعالى : هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله .

وقد صح عن رسول الله(صلى الله عليه وسلم) أنه قال : إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين سمى الله فأحذروهم .

مثال ذلك إذا قال بعض المشركين :

ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وأن الشفاعة حق .

وأن الأنبياء لهم جاه عند الله .

أو ذكر كلام للنبي (صلى الله عليه وسلم) يستدل به على شيء من باطله ، وأنت لاتفهم معنى الكلام الذي ذكره ، فجاوبه بقولك :

إن الله ذكر في كتابه إن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ، ويتبعون المتشابه . وما ذكرته من أن الله ذكر : أن المشركين يقرون بالربوبيه ، وأن كفرهم بتعلقهم على الملائكة والأنبياء، مع قولهم : هؤلاء شفعاؤنا عند الله .
هذا أمر محكم بين ، لايقدر أحد أن يغير معناه .
وما ذكرت لي أيها المشرك من القرآن، أو كلام النبي (صلى الله عليه وسلم) ، لايخالف كلام الله .
وهذا جواب سديد ، ولكن لايفهمه إلا من وفقه الله ، فلا تستهن به ، فإنه كما قال الله تعالى : وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم.

وأما الجواب المفصل فإن أعداء الله لهم اعتراضات كثيرة على دين الرسل ، يصدون بها الناس عنه : منها : قولهم : نحن لانشرك بالله ، بل نشهد أنه لا يخلق ولا يرزق ، ولا ينفع ولا يضر ، إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) لايملك لنفسه نفعاً ولاضراً ، فضلاً عن عبد القادر ، أو غيره ، ولكن أنا مذنب ، والصالحون لهم جاه عند الله ، وأطلب من الله بهم .

فجاوبه بما تقدم ، وهو : أن الذين قاتلهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مقرون بما ذكرت ، ومقرون أن أوثانهم لا تدبر شيئاً ، وإنما أرادوا الجاه والشفاعة ، وأقرأ عليه ما ذكر الله في كتابه فإن قال : هؤلاء الآيات نزلت فيمن يعبد الأصنام ، كيف تجعلون الصالحين من الأصنام ؟ أم كيف تجعلون الأنبياء أصناماً .

فجاوبه بما تقدم .

فإنه إذا أقر أن الكفار يشهدون بالربوبية كلها ، وأنهم ما أرادوا منها إلا الشفاعة ولكن أراد أن يفرق بين فعله وفعلهم بما ذكر - فاذكر له : أن الكفار منهم من يدعو الأصنام ومنهم من يدعو الأولياء ، الذين قال الله فيهم : أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب.

ويدعون عيسى بن مريم وأمه ، وقد قال الله تعالى : ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون * قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم .

واذكر له قوله تعالى : ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون .

وقوله تعالى : وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب .

فقيل له : أعرفت أن الكفر من قصد الأصنام .

وكفر - أيضاً - من قصد الصالحين ، وقاتلهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؟ . فإن قال : الكفار يريدون منهم ، وأنا أشهد أن الله النافع الضار المدبر ، لا أريد إلا منه والصالحون ليس لهم من الأمر شيء ، ولكن أقصدهم أرجوا منهم شفاعتهم فالجواب : أن هذا قول الكفار سواء بسواء ، وأقرأ عليه قوله تعالى والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى .

وقوله تعالى ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله.

واعلم : أن هذه الشبه الثلاث ، هي أكبر ما عندهم .
فإذا عرفت أن الله وضحها لنا في كتابه ، وفهمتها فهما جيداً ، فما بعدها أيسر منها . فإن قال : أنا لا أعبد إلا الله ، وهذا الإلتجاء إلى الصالحين .
ودعاؤهم ليس بعبادة .
فقل له : أنت تقر أن الله افترض عليك إخلاص العبادة ، وهو حقه عليك .
فإذا قال نعم . فقل له : بين لي هذا الذي فرض عليك ، وهو إخلاص العبادة [لله وحده] ، وهو حقه عليك .
فإنه لا يعرف العبادة ، ولا أنواعها

فبينها له بقولك : قال الله تعالى : ادعوا ربكم تضرعاً وخفية .
فإذا أعلمته بهذا ، فقل له : هل علمت ؟ [هذه عبادة لله].
فلا بد أن يقول : نعم والدعاء مخ العبادة .
فقل له : إذا أقررت أنها عبادة ، ودعوت الله ليلاً ونهاراً ، خوفاً وطمعاً ، ثم دعوت في تلك الحاجة نبياً غيره ؟
فلا بد أن يقول : نعم .
فقل له : فإذا علمت بقول الله تعالى : فصل لربك وانحر ، وأطعت الله ونحرت له هل هذه عبادة ؟
فلا بد أن يقول : نعم .
فقل له : إذا نحرت لمخلوق - نبي ، أو جني ، أو غيرهما - هل أشركت في هذه العبادة غير الله ؟
فلا بد أن يقر ويقول : نعم .
وقل له - أيضاً : المشركون الذين نزل فيهم القرآن ، هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات ، وغير ذلك ؟
فلا بد أن يقول : نعم .
فقل له : وهل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبح والإلتجاء ، ونحو ذلك ، وإلا فهم يقرون أنهم عبيده ، وتحت قهره ، وأن الله هو الذي يدبر الأمر ، ولكن دعوهم والتجأوا إليهم للجاه والشفاعة ، وهذا ظاهر جداً .
فإن قال أتنكر شفاعة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتبرأ منها ؟
فقل له : لا أنكرها ولا أتبرأ منها ، بل هو (صلى الله عليه وسلم) الشافع المشفع وأرجو شفاعته ، ولكن الشفاعة كلها لله كما قال تعالى : قل لله الشفاعة جميعاً . ولا تكون إلا من بعد إذن الله ، كما قال عز وجل : من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه . ولا يشفع في أحد إلا من بعد أن يأذن الله فيه ، كما قال عز وجل : ولا يشفعون إلا لمن ارتضى .
وهو لايرضى إلا التوحيد ، كما قال عز وجل : ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه . فإذا كانت الشفاعة كلها لله ، ولا تكون إلا من بعد إذنه ، ولا يشفع النبي (صلى الله عليه وسلم)، ولاغيره - في أحد حتى يأذن الله فيه ، ولايأذن إلا لأهل التوحيد ، تبين لك :
إن الشفاعة كلها لله فاطلبها منه ، فأقول : اللهم لا تحرمني شفاعته ، اللهم شفعه في وأمثال هذا فإن قال النبي (صلى الله عليه وسلم) أعطي الشفاعة ، وأنا أطلبه مما أعطاه الله ؟.
فالجواب : أن الله أعطاه الشفاعة ، ونهاك عن هذا ، فقال : فلا تدعو مع الله أحدا ، فإذا كنت تدعو الله أن يشفع نبيه فيك فأطعه في قوله : فلا تدعو مع الله أحدا .
وأيضاً : فإن الشفاعة أعطيها غير النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فصح أن الملائكة يشفعون ، والأفراط يشفعون .

أتقول : أن الله أعطاهم الشفاعة فأطلبها منهم ؟.
فإن قلت هذا ، رجعت إلى عبادة الصالحين التي ذكر الله في كتابه وإن قلت : لا .
بطل قولك : أعطاه الله الشفاعة وأنا أطلبه مما أعطاه الله .
فإن قال : أنا لا أشرك بالله شيئاً، حاشا وكلا، ولكن الإلتجاء إلى الصالحين ليس بشرك ؟.
فقل له : إذا كنت تقر أن الله حرم الشرك أعظم من تحريم الزنا ، وتقر : أن الله لا يغفره فما هذا الأمر الذي حرمه الله وذكر أنه لايغفره ، فإنه لا يدري .
فقل له : كيف تبرئ نفسك من الشرك وأنت لا تعرفه ، أم كيف يحرم الله عليك هذا ويذكر أنه لا يغفره ، ولا تسأل عنه ولا تعرفه ، أتظن أن الله يحرمه ولا يبينه لنا ؟.
فإن قال : الشرك عبادة الأصنام ونحن لا نعبد الأصنام ؟. فقل له : ما معنى عبادة الأصنام ، أتظن أنهم يعتقدون أن تلك الأخشاب والأحجار تخلق وترزق ، وتدبر أمر من دعاها ، فهذا يكذبه القرآن [كما في قوله تعالى: قل من يرزقكم من السماء والأرض الآية] ؟.
وإن قال : هو من قصد خشبةً أو حجراً ، أو أبنية على قبر أو غيره ، يدعون ذلك ويذبحون له ، ويقولون : إنه يقربنا إلى الله زلفى ، ويدفع الله عنا ببركته ، [أو يعطينا ببركته] ؟. فقل له : صدقت ، وهذا هو فعلكم عند الأحجار والأبنية التي على القبور وغيرها .
فهذا أقر : أن فعلهم هذا هو عبادة الأصنام ، [فهو المطلوب .]
ويقال له - أيضاً - : قولك الشرك عبادة الأصنام ، هل مرادك أن الشرك مخصوص بهذا ، وأن الإعتماد على الصالحين ودعاءهم لايدخل في ذلك ، فهذا يرده ما ذكره الله في كتابه من كفر من تعلق على الملائكة أو عيسى ، أو الصالحين ؟.
فلا بد أن يقر لك أن من أشرك في عبادة الله أحداً من الصالحين ، فهو الشرك المذكور في القرآن ، وهذا هو المطلوب .
وسر المسألة : أنه إذا قال أنا لا أشرك بالله ، فقل له : وما الشرك بالله ؟ فسره لي .
فإن قال : هو عبادة الأصنام .
فقل : وما معنى عبادة الأصنام ؟ فسرها لي .
فإن قال : أنا لاأعبد إلا الله وحده .
فقل له : ما معنى عبادة الله وحده ؟ فسرها لي .
فإن فسرها بما بينه القرآن ، فهو المطلوب ، وإن لم يعرفه فكيف يدعي شيئاً وهو لا يعرفه ؟. وإن فسر ذلك بغير معناه ، بينت له الآيات الواضحات في معنى الشرك بالله وعبادة الأوثان وأنه الذي يفعلونه في هذا الزمان بعينه ، وأن عبادة الله وحده لا شريك له هي التي ينكرون علينا ، ويصيحون فيه كما صاح إخوانهم حيث قالوا : أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب

]فإن قال : إنهم لايكفرون بدعاء الملائكة والأنبياء ، وإنما يكفرون لما قالوا: الملائكة بنات الله فإنا لم نقل : عبد القادر ابن الله ، ولا غيره ؟.
فالجواب : أن نسبة الولد إلى الله كفر مستقل ، قال الله تعالى : قل هو الله أحد * الله الصمد
والأحد : الذي لايظهر له .
والصمد : المقصود في الحوائج ، فمن جحد هذا فقد كفر ولو لم يجحد السورة .
وقال الله تعالى : ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله
ففرق بين النوعين ، وجعل كلا منهما كفراً مستقلاً .
وقال تعالى : وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ففرق بين الكفرين .
والدليل على هذا أيضاً : أن الذين كفروا بدعاء اللات مع كونه رجلاً صالحاً لم يجعلونه ابن الله والذين كفروا بعبادة الجن لم يجعلوهم كذلك.
وكذلك - أيضاً - : العلماء في جميع المذاهب الأربعة يذكرون في باب حكم المرتد : أن المسلم إذا زعم أن لله ولد فهو مرتد ، ويفرق بين النوعين ، وهذا في غاية الوضوح .
وإن قال ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .
فقل : هذا هو الحق ، ولكن لا يعبدون . ونحن لم نذكر إلا عبادتهم مع الله وشركهم معه ، وإلا فالواجب عليك حبهم واتباعهم ، والإقرار بكرامتهم .
ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل البدع والظلال ، ودين الله وسط بين طرفين ، وهدى بين ضلالتين ، وحق بين باطلين .

فإذا عرفت : أن هذا الذي يسميه المشركون في زماننا [كبير الاعتقاد] هو الشرك الذي نزل فيه القرآن ، وقاتل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الناس عليه .
فاعلم أن شرك الأولين أخف من شرك أهل زماننا بأمرين :
أحدهما : أن الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء والأوثان مع الله إلا في الرخاء وأما في الشدة فيخلصون لله الدعاء .
كما قال تعالى : وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً .
وقوله : قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين * بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون .
وقوله وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه - إلى قوله - : قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار .
وقوله : وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين .
فمن فهم هذه المسألة التي وضحها الله في كتابه ، هي : أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يدعون الله ، ويدعون غيره في الرخاء ، وأما في الضراء والشدة ، فلا يدعون إلا الله وحده لاشريك له ، وينسون سادتهم - تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأولين .
ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهماً راسخاً ، والله المستعان .

أما الأمر الثاني : أن الأولين يدعون مع الله أناساً مقربين عند الله ، إما أنبياء ، وإما أولياء وإما ملائكة ، أو يدعون أشجاراً أو أحجاراً ، مطيعة لله وليست عاصية .

وأهل زماننا يدعون مع الله أناساً من أفسق الناس ، والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة ، وترك الصلاة ، وغير ذلك .

والذي يعتقد في الصالح - أو الذي لايعصي - مثل الخشب والحجر - أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ، ويشهد به .

فإذا تحققت أن الذين قاتلهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أصح عقولاً ، وأخف شركاً من هؤلاء فاعلم أن لهؤلاء شبهة يوردونها على ما ذكرنا ، وهي من أعظم شبههم ، فأصغ سمعك لجوابها .
وهي : [أنهم يقولون] : إن الذين نزل فيهم القرآن لايشهدون أن لا إله إلا الله ويكذبون الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وينكرون البعث ، ويكذبون القرآن ، ويجعلونه سحراً ، ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ونصدق القرآن ، ونؤمن بالبعث ونصلي ونصوم ، فكيف تجعلوننا مثل أولئك ؟.
فالجواب : أنه لاخلاف بين العلماء كلهم أن الرجل إذا صدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في شيء ، وكذبه في شيء ، أنه كافر لم يدخل في الإسلام . وكذلك إذا آمن ببعض القرآن وجحد بعضه ، كما أقر بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة ، أو أقر بالتوحيد والصلاة وجحد وجوب الزكاة ، أو أقر بهذا كله ، وجحد الصوم ، أو أقر بهذا كله وجحد الحج .
ولما لم ينقد أناس في زمن النبي (صلى الله عليه وسلم) للحج ، أنزل في حقهم : ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين .
ومن أقر بهذا كله وجحد البعث ، كفر بالإجماع ، وحل دمه وماله ، كما قال تعالى : إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ، ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً * أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً .
فإذا كان الله قد صرح في كتابه : أن من آمن ببعض وكفر ببعض ، فهو الكافر حقاً ، زالت هذه الشبهة ، وهذه هي التي ذكرها بعض أهل الأحساء في كتابه الذي أرسله إلينا .
ويقال أيضاً : إذا كنت تقر أن من صدق الرسول (صلى الله عليه وسلم) في كل شيء ، وجحد وجوب الصلاة ، فهو كافر حلال الدم والمال بالإجماع ، وكذلك إذا أقر بكل شيء إلا البعث . وكذلك لو جحد وجوب صوم رمضان وصدق بذلك كله ، لاتختلف المذاهب فيه ، وقد نطق به القرآن ، كما قدمنا .

فمعلوم : أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو أعظم من الصلاة والزكاة والصوم والحج ، فكيف إذا جحد الإنسان شيئاً من هذه الأمور كفر ، ولو عمل بكل ما جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وإذا جحد التوحيد الذي هو دين الرسال كلهم لا يكفر ؟.

سبحان الله ، ماأعجب هذا الجهل !!

ويقال - أيضاً - هؤلاء أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قاتلوا بني حنيفة وقد أسلموا مع النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ويؤذنون ويصلون .

فإن قال أنهم يقولون : أن مسيلمة نبي .

فقل : هذا هو المطلوب ، إذا كان من رفع رجلاً إلى رتبة النبي) صلى الله عليه وسلم) كفر ، وحل ماله ودمه ، ولم تنفعه الشهادتان ، ولا الصلاة ، فكيف بمن رفع شمسان - أو يوسف ، أو صحابياً أو نبياً - إلى مرتبة جبار السموات والأرض ؟

سبحان الله مأأعظم شأنه ، كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون .

ويقال ــ أيضاً ــ : الذين حرقهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنار كلهم يدعون الإسلام ، وهم من أصحاب علي ، وتعلموا العلم من الصحابة ، ولكن اعتقدوا في علي مثل الاعتقاد في يوسف وشمسان وأمثالهم ، فكيف أجمع الصحابة على قتلهم وكفرهم ؟

أتظنون أن الصحابة يكفرون المسلمين ، أم تظنون أن الاعتقاد في تاج وأمثاله لا يضر ، والاعتقاد في علي بن أبي طالب يكفر ؟

ويقال - أيضاً - : بنو عبيد القداح الذين ملكوا المغرب ومصر في زمان بني العباس ، كلهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويدعون الإسلام ، ويصلون الجمعة والجماعة فلما أظهروا مخالفة الشريعة في أشياء دون ما نحن فيه ، أجمع العلماء على كفرهم وقتالهم ، وأن بلادهم بلاد حرب ، وغزاهم المسلمون حتى استنفذوا ما بأيديهم من بلدان المسلمين .

ويقال - أيضاً - : إذا كان الأولون لم يكفروا ، إلا لأنهم جمعوا بين الشرك وتكذيب الرسول والقرآن ، وإنكار البعث ، وغير ذلك ، فما معنى الباب الذي ذكره العلماء في كل مذهب : باب حكم المرتد ، وهو المسلم الذي يكفر بعد إسلامه ؟.

ثم ذكروا أنواعاً كثيرة ، كل نوع منهما يكفر ويحل دم الرجل وماله ، حتى إنهم ذكروا أشياء يسيرة عند من فعلها ، مثل كلمة يذكرها بلسانه دون قلبه ، أوكلمة يذكرها على وجه المزح واللعب .

ويقال - أيضاً - : الذين قال الله فيهم : يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم

أما سمعت الله كفرهم بكلمة ، مع كونهم في زمن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويجاهدون معه ويصلون ويزكون ويحجون ويوحدون ؟.

وكذلك الذين قال الله فيهم : قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم .

فهؤلاء الذين صرح الله فيهم أنهم كفروا بعد إيمانهم وهم مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في غزوة تبوك ، قالوا كلمةً ذكروا أنهم قالوها على وجه المزح .

فتأمل هذه الشبهة وهي قولهم : تكفرون من المسلمين أناساً يشهدون أن لا إله إلا الله ، ويصلون ويصومون ؟. ثم تأمل جوابها ، فإنه من أنفع مافي هذه الأوراق .

ومن الدليل على ذلك - أيضاً - : ما حكى الله عن بني إسرائيل - مع إسلامهم وعملهم وصلاحهم - أنهم قالوا لموسى : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ،. وقول أناس من الصحابة : إجعل لنا ذات أنواط فحلف النبي (صلى الله عليه وسلم) أن هذا نظير قول بني إسرائيل اجعل لنا إلها .

ولكن للمشركين شبهة [أخرى] يدلون بها عند هذه القصة ، وهي أنهم يقولون : إن بني إسرائيل لم يكفروا بذلك .

وكذلك الذين قالوا للنبي (صلى الله عليه وسلم) : إجعل لنا ذات أنواط لم يكفروا .

فالجواب : أن نقول : إن بني إسرائيل لم يفعلوا ذلك ، وكذلك الذين سألوا النبي (صلى الله عليه وسلم)لم يفعلوا ذلك ، ولاخلاف أن بني إسرائيل لو فعلوا ذلك لكفروا .

وكذلك لا خلاف في أن الذين نهاهم النبي (صلى الله عليه وسلم) - لو لم يطيعوه ، واتخذوا ذات أنواط بعد نهيه - لكفروا ، وهذا هو المطلوب .

ولكن هذه القصة تفيد : أن المسلم - بل العالم - قد يقع في أنواع من الشرك ، لايدري عنها، فتفيد التعلم والتحرز ، ومعرفة أن قول الجاهل التوحيد فهمناه :أن هذا من أكبر الجهل ومكايد الشيطان .

وتفيد - أيضاً - : أن المسلم المجتهد إذا تكلم بكلام كفر - وهو لايدري - فنبه على ذلك فتاب من ساعته ، أنه لايكفر ، كما فعل بنو إسرائيل ، والذين سألوا النبي (صلى الله عليه وسلم) .

وتفيد - أيضاً - : أنه لو لم يكفر ، فإنه يغلط عليه الكلام تغليظاً شديداً ، كما فعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وللمشركين شبهة أخرى يقولون : إن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنكر على أسامة قتل من قال : لا إله إلا الله .
أو قال : اقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله .
وكذلك قوله : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله).
وأحاديث أخرى في الكف عمن قالها .
ومراد هؤلاء الجهلة : أن من قالها لا يكفر ، ولايقتل ، ولو فعل ما فعل .
فيقال لهؤلاء المشركين: الجهال : معلوم أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قاتل اليهود وسباهم ، وهم يقولون : لا إله إلا الله ، وأن أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويصلون ويدعون الإسلام .
وكذلك الذين حرقهم علي بن أبي طالب بالنار ، وهؤلاء الجهلة مقرون : أن من أنكر البعث كفر وقتل ، ولو قال : لا إله إلا الله ، وأن من جحد فرعاً من أركان الإسلام كفر وقتل ، ولو قالها . فكيف لا تنفعه إذا جحد فرعاً من الفروع ، وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أصل دين الرسل ورأسه ؟
ولكن أعداء الله مافهموا معنى الأحاديث .
فأما حديث أسامة فإنه قتل رجلاً ادعى الإسلام بسبب أنه ظن ما ادعى الإسلام إلا خوفاً على دمه وماله ، والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه ، حتى يتبين منه مالم يخالف ذلك .
وأنزل الله تعالى في ذلك : يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ،أي فتثبتوا .

فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت ، فإذا تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قتل ، لقوله تعالى : فتبينوا ولو كان لايقتل إذا قالها ، لم يكن للتثبت معنى .
وكذلك الحديث الآخر وأمثاله ، عن ماذكرناه : أن من أظهر التوحيد والإسلام وجب الكف عنه إلى أن يتبين منه ما يناقص ذلك ، والدليل على هذا : أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : أقتلته بعد ماقال لا إله إلا الله ؟
وقال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلى الله ؟.
هو الذي قال في الخوارج : أينما لقيتمونهم فاقتلوهم ، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد . مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلاً وتسبيحاً ، حتى أن الصحابة يحقرون صلاتهم عندهم وهم تعلموا العلم من الصحابة ، فلم تنفعهم لا إله إلا الله ، ولا كثرة العبادة ، ولا ادعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة .
وكذلك ماذكرناه من قتال اليهود ، وقتال الصحابة بني حنيفة .
وكذلك أراد النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يغزوا بني المصطلق لما أخبره رجل أنهم منعوا الزكاة حتى أنزل الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا وكان الرجل كاذباً عليهم .
وكل هذا يدل على أن مراد النبي) صلى الله عليه وسلم) في الأحاديث التي احتجوا بها ماذكرناه .

ولهم شبهة أخرى ، وهو : ماذكر النبي (صلى الله عليه وسلم) : أن الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم ، ثم بنوح ، ثم بإبراهيم ، ثم بموسى ، ثم بعيسى ، فكلهم يعتذرون ، حتى ينتهوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .
قالوا : فهذا يدل على أن الإستغاثة بغير الله ليست شركاً ؟.
والجواب أن تقول : سبحان من طبع على قلوب أعدائه ، فإن الإستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه لاننكرها ، كما قال الله تعالى في قصة موسى : فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ، وكما يستغيث الإنسان بصاحبه في الحرب أو غيره ، في أشياء يقدرعليها المخلوق . ونحن أنكرنا استغاثه العبادة التي يفعلونها عند قبور الأولياء ، أو في غيبتهم ، في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله .
إذا أثبت ذلك : فاستغاثتهم بالأنبياء يوم القيامة يريدون منها أن يدعوا الله أن يحاسب الناس ، حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف .
وهذا جائز في الدنيا والآخرة ، وذلك أن تأتي عند رجل صالح حي يجالسك ، ويسمع كلامك فتقول له : ادع الله لي ، كما كان أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سيألونه ذلك في حياته .
وأما بعد موته : فحاشا وكلا أنهم سألوه ذلك عند قبره ، بل أنكر السلف الصالح على من قصد دعاء الله عند قبره ، فكيف بدعائه نفسه ؟.

ولهم شبه أخرى ، وهي : قصة إبراهيم لما ألقي في النار ، اعترض له جبريل في الهواء فقال له : ألك حاجة ؟. فقال إبراهيم : أما إليك فلا .
قالوا : فلو كانت الإستغاثة بجبريل شركاً لم يعرضها على إبراهيم ؟.
فالجواب : أن هذا من جنس الشبهة الأولى ، فإن جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه ، فإنه كما قال الله فيه : شديد القوى ، فلو أذن الله أن يأخذ نار إبراهيم وما حولها من الأرض و الجبال ، ويلقيها في المشرق أوالمغرب ، لفعل ، ولو أمره أن يضع إبراهيم في مكان بعيد عنهم لفعل ، ولو أمره أن يرفعه إلى السماء لفعل .
وهذا كرجل غني له مال كثير يرى رجلاً محتاجاً ، فيعرض عليه أن يقرضه أو أن يهبه شيئاً يقضي به حاجته ، فيأبى ذلك الرجل المحتاج أن يأخذ ، ويصبر إلى أن يأتيه الله برزق لامنة فيه لأحد ، فأين هذا من إستغاثة العبادة والشرك لو كانوا يفقهون ؟.

ولنختم الكلام - إن شاء الله تعالى - بمسألة عظيمة مهمة تفهم مما تقدم ، ولكن نفرد لها الكلام لعظم شأنها ، ولكثرة الغلط فيها ، فنقول :
لاخلاف أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل ، فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلماً .
فإن عرف التوحيد ولم يعمل به . فهو كافر عاند، كفرعون وإبليس وأمثالهما. وهذا يغلط فيه كثير من الناس ، يقولون : هذا حق ونحن نفهم هذا ، ونشهد أنه الحق ، ولكنا لا نقدر أن نفعله ، ولايجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم ، أو غير ذلك من الأعذار .
ولم يدر المسكين : أن غالب أئمة الكفر يعرفون الحق ، ولم يتركوه إلا لشيء من الأعذار ، كما قال تعالى : اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً وغير ذلك من الآيات ، كقوله : يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .
فإن عمل بالتوحيد عملاً ظاهراً وهو لا يفهمه ، أو لا يعتقده بقلبه ، فهو منافق ، وهو شر من الكافر الخالص : إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار .
وهذه المسألة مسألة كبيرة طويلة ، تتبين لك إذا تأملتها في ألسنة الناس . ترى من يعرف الحق ويترك العمل به ، لخوف نقص دنيا أو جاه ، أو مداراة لأحد .
وترى من يعمل به ظاهراً لا باطناً، فإذا سألته عما يعتقد بقلبه فإذا هو لا يعرفه.
ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله .
أولاهما : قوله تعالى : لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم .
فإذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه المزح واللعب ، تبين لك أن الذي يتكلم بالكفر أو يعمل به خوفاً من نقص مال أو جاه ، أو مداراة لأحد ، أعظم ممن يتكلم بكلمة يمزح بها .

والآية الثانية : قوله تعالى : من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم * ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة الآية .

فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئناً بالإيمان .

وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه ، سواء فعله خوفاً ، أو طمعاً أو مداراةً ، أو مشحة بوطنه أوأهله ، أو عشيرته أو ماله ، أو فعله على وجه المزح ، أو لغير ذلك من الأعراض ، إلا المكره .

فالآية تدل على هذا من جهتين :

الأولى قوله : إلا من أكره فلم يستثن الله تعالى إلا المكره .

ومعلوم : أن الإنسان لايكره إلا على الكلام ، أو الفعل ، وأما عقيدة القلب فلا يكره عليها أحد .

والثانية قوله تعالى : ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة .

فصرح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الإعتقاد أو الجهل ، أو البغض للدين أو محبة الكفر ، وإنما سببه : أن له في ذلك حظاً من حظوظ الدنيا فأثره على الدين .

والله سبحانه وتعالى أعلم .

وصلى الله على نبينا محمد وآله ، وصحبه وسلم

فوائد من الدروس

أخي الكريم : لا تنسى من قام بهذا العمل من دعائك بأن يفتح الله على قلبه بالعلم النافع والعمل الصالح وأن يثبته على الدين وأن يغفر له ولوالديه ولجميع المسلمين